المتنبي والحب

الحب أرق كلمة في قاموس الحياة، وأجمل لفظة في دفتر الوجود، وأبهى عبارة في ديوان المعرفة، إنه صلة الروح بالروح، وضم القلب للقلب، وعناق النفس للنفس، وأعرف الناس بمعاني الحب وأسراره هم الشعراء؛ لأن عواطفهم جائشة، وجوانحهم مجنحة، ومنهم كبيرهم الذي علمهم سحر الكلمة وهو المتنبي.

وتعال معي في بهو الحب ومع أبي الطيب إذ يقول:

أرقُّ علـــى أرقٍ ومثلـــي يأرقُ وجـوًى يزيـدُ وعبـرةٌ تترقرقُ

جهد الصـبابةِ أن تكون كما أرى عينٌ مُسَـــهَّدةٌ وقلـــبٌ يخفـقُ

فأنت ترى أنه كلام خبير بالحب، بصير بمذاهبه، غامض على حقائقه، وانظر إلى تفننه وعجيب اقتداره في الرقيب، وخيانة الضمير، وغيض الدمع وابتداره ويقول:

حاشى الرقيبَ فخانتهُ ضمائرهُ وغيّضَ الدَّمعَ فانهلّت بـوادِرَه

وكاتمُ الحـبِّ يـوم البينِ منهتـكٌ وصاحبُ الدَّمعِ لا تَخْفَى سرائره

فهـو ليـس صـانع كـلام، ولا مـزخـرف قـول، بل ذائق عـارف، ويقـول في مطلع قصيدة:

بادَ هواكَ صبرتَ أم لم تصـبرا وبَكاكَ إن لم يجرِ دمعُك أو جرى

فهـو يصف لك ظاهـرة من ظواهر الحب، وهو تجلد المحب وكتـمانه لحبـه، ولكن دمعه يفضحه بالرغم من حبسه.

ويقدم لك نفسه على أنه مصاب بداء الحب، قتيل بالأعين النُّجْل:

فمنَ شاءَ فلينظر إليَّ فمنظري نذيرٌ إلى من ظن أن الهوى سهلُ

ثم تشرق نفسه بمعنى بديع من معانيه الفائقة:

كأن رقيبًا منك سَدّ مسامعي عن العذلِ حتَّى ليس يدخُلُها العذلُ

وهو معنى معروف عند الشعراء، يقول محمد بن داود:

كأن رقيبًا منك يرعى خواطِري وآخرُ يرعى ناظِري ولسَانِي

ثم يأتي بصورة خلابة تفرد بها ـ فيما أعلم ـ يقول:

قالتَ وقد رأتِ اصفِراري من بِهِ وتَنَهدَت فأجبتُها المتنهّدُ

فهو شاعر ثري التجربة، عامر الموهبة، صحيح المحبة، يقول:

خريدُةُ لو رأتها الشمسُ ما طلعت ولو رآها قضيبَ البانِ لم يَمِسِ

فانظر إلى حضور الصورة في ذهنه، وجودة خاطره بالموصوف، وسرعة استحضاره للمشاهد، ويقول:

نثرتَ ثلاثَ ذوائبٍ من شَعْرها في ليلةٍ فأرتْ ليالِيَ أربعا

واستقبلتَ بدرَ السماءِ بوجهها فأرتني القمرينِ في ليلٍ معا

إن صاحب هذه الأبيات له ذاكرة وقادة، وطبيعة منقادة، فليس بارد المشاعر، جاف العواطف، بل هو أحق بقول القائل:

وقاد ذهنٍ إذا سالتَ قريحتُه يكادُ يُخشى عليه من تلهبِهِ

وكلما غير قافيته حضرته صورة من الحب والنسيب في حلل وارفة من بديع الوشي، وغالي النسيج، يقول في مقام آخر:

عُجْنَا فأذْهَبَ ما أبقى الفراق لنا من العقول وما رد الذي ذَهَبا

سقيتُه عبراتٍ ظنها مطراً سوائلا من جفون ظنَّها سُحُبا

إنه التفرد في الجودة، والتوحد في الآلة، حتى يفرض عليك الاستماع له، والإعجاب بنتاجه الرصين؛ لأن الرجل عميق في فنه، موهوب في عطائه، وأصيل في موهبته. وانظر إلى قصيده وهو يناجي الأرواح بما يحمله من حب وحنين وشوق ولوعة، يقول:

ليالِيَّ بَعْد الظاعنين شُكولُ طِوالٌ وليلُ العاشقين طَويلُ

فانظر إلى حسن تأتيه للمعني، وبراعة استهلاله، واكتمال هذا البيت، حتى صار كالعنوان على الكتاب، والوشم على الكف. وانصت لهذا الالتياع والوجد للمنازل في هذا المطلع الخلاب:

لكِ يا منازلُ في القلوبِ منازلُ أقْفرتِ أنتِ وهنَّ منكِ أواهِلُ

فتبقى تردد معه مشدوها بطريقة اختياره وجمال بنائه، وهذا مطلع أنيق يظهر مادة الغرام في نفس هذا لشاعر الموهوب يقول:

وفاؤكما كالرَّبعِ أشجاه طاسِمُه بأن تُسْعِدا والدمع أشفاهُ ساجِمُه

فهو يمزج الحكمة بالحب بالعاطفة بالحنين، مع سهولة راقية في اللفظ، وجزالة وارفة في المعنى، ومذهب سديد في الإبداع، فحب المتنبي حب ميل إلى الجمال، وإعجاب بالحسن، وشغف بالبهاء، وهو ليس وقفًا على المرأة، بل حب وفاء لأصحابه، من ملك، أو صديق، أو منزل، أو دار، لأنه ألُوفٌ يحفظ العهد، ويرعى الذمة، ويتعاهد الذكريات، ويرعى الوداد، ويبكي بكاء الأبطال، ويتفجع تفجع الشجعان، ويتوجع توجع العظماء، ولكنّه في النهاية إنسان له قلب ضعيف، وعواطف متأججة، ودموع حارة، ونفس تذوب للجمال، وتطير إلى الكمال، وتعشق الحسن.

obeikandl.com